سرحان سرحان بطل من هذا الزمان

عندما غادرنا سرحان سرحان إلى الأبدية، لم يكن قد بلغ الثمانين بعد، من عمره. والثمانون كانت، بالنسبة إليه، محطة في مسيرة حياته، لا أكثر، باتجاه المستقبل. فحبه للحياة كان عظيماً جداً، كان بلا حدود. وعلى هذا الأساس من عدم الإحساس بالموت، رغم تقدمه في السن، كان يخطط، دائماً لمهمات جديدة، بعضها كان استمراراً لمهمات سابقة، وبعضها الآخر كان اقتحاماً لعالم جديد لا معرفة سابقة عنده بمعطياته. إلاّ أنّ المرض المفاجئ الذي ألمّ به قد عطّل كل شيء في هذا المسار الذي كان يبدع فيه بهدوء لا صخب فيه ولا ضجيج.. ولعلّ لهذا المرض، بالذات، أسباباً غير الأسباب التي يشير إليها علم الطب. ذلك أنّه استطاع أن يصارع الألم الذي كان يؤرقه ويصارع أسبابه المادية والنفسية، بقدرة فاقت تصور الأطباء. وظلَّ، حتى اللحظة الأخيرة يمتلك، برغم كل ما هدمه المرض، وخيبات، الزمن الصعب، من قوى جسدية فيه، حاضر الذهن، متوقده، منشغلاً بكل الهموم، الخاصة والعامة، كما لو أنّه كان ينتظر أن يستأنف غداً، أو بعد غد، نشاطه الطبيعي، واهتماماته، والاجتهاد في البذل والعطاء بأفضل وجه وأكثره دقة وتسديداً.

هذا ما كان عليه "أبو علي" في أيامه الأخيرة، قبل أن ينتزعه الموت الغادر منّا. هكذا كان، كالماضي في أيامه السابقة، من عمره الطويل، مع فارق، في الدرجة، سبّبه المرض، إنساناً خاصاً تعايشت في شخصه وسلوكه وفي انتماءاته إلى القِيَم والأفكار والأهداف، أجيال متعددة لم يؤد التناقض فيما بينها إلى تناحر، بل إلى تجديد في الشباب جعله، وهو في السبعينات من العمر، وحتى في الجزء الأخير منها، أكثر شباباً من كثيرين من أولئك الشباب الذين كانوا حوله، وفي أقرب المسافات إليه، وإلى روحه وعقله ووجدانه وطموحاته وأحلامه.

يصعب الحديث، في هذه اللحظة، عن كل سرحان سرحان، وحتى عن بعضه. فهو بحاجة مني، ومن آخرين من أصدقائه الكثر، الذين عرفوه منذ زمن طويل، إلى استنفار الذاكرة والأحداث والأشخاص والأمكنة والأزمنة، على اختلافها كلّها، من أجل كشف الأساسي من تنوع عطاءاته. غير أني لا أملك إلاّ أن أشير، ولو بقليل من الكلام، إلى بعض ما التزم به من مهمات، خاصة وعامة. فقد كان مربياً، وقاضياً، وقانونياً. وشغل مناصب كبرى في الدولة، في ديوان المحاسبة وفي التفتيش، وفي المجلس الأعلى للجمارك. وكان عاملاً بجهدٍ استثنائي في ميدان الخدمات الإنسانية، على رأس النجدة الشعبية، وفي إدارة مستشفى الزهراء. ولكنه كان، قبل ذلك، وبعده، وفي كل لحظة من حياته، منتمياً، بامتياز، إلى العمل السياسي، من موقع الوطنية الواضحة، في قلب الحركة التقدمية

والديمقراطية، صديقاً للحزب الشيوعي، حتى العظم. وكان، في الوقت ذاته، ودون أي شعور بالتناقض عنده، في الموقف والسلوك، عضواً في الهيئة التنفيذية للمجلس الشيعي الأعلى، بالانتخاب الديمقراطي الحر، منذ أواسط السبعينات، وحتى آخر لحظة من حياته الغالية.

تعرفت إليه، منذ خمسين عاماً، عندما كنت تلميذاً في السنة الأخيرة من المرحلة الابتدائية في المدرسة الجعفرية، في صور. التي كان مديراً محترماً فيها. وكم كنت سعيداً عندما التقيت به، بعد ذلك بعشر سنوات، في بيروت، مع عدد من مثقفي تلك الفترة الطليعيين، ماركسيين وديمقراطيين، كانوا يسهرون على إصدار مجلة "الثقافة الوطنية"، ويبحثون في كل شؤون البلاد والحياة والفكر، ومن بينهم الشهيد حسين مروّة، والشيخ محمّد جواد مغنيّة، ونصّار الأسعد، ورضوان الشهّال، رحمهم الله، والدكتور حسن عواضة وميشال كرم ووليد غمرة، ومحمّد دكروب. وزادت سعادتي بهذا اللقاء عندما عرفت أنّ "أبو علي" الذي كان يقترب من الماركسية في ذلك الحين، كان قد شارك، في الثلاثينات والأربعينات، في الجنوب، بخاصة، وعلى امتداد الوطن مع جيل علي بزي وموسى الزين شرارة وعبد الحسين عبد الله، وحسين مروّة، وزهير عسيران، ومحمّد صفي الدين ورضا التامر، وآخرين، في حركة الشباب الوطني اللبناني المعادي للاستعمار الفرنسي، وللصهيونية، وللاقطاع السياسي، برموزه المعروفة في ذلك الزمن. إذْ هو انتقل من قلب هذه الحركة، بالذات، وبشكل طبيعي، مع ارتقاء وعيه، وإطلالته على ما كانت تقدمه الحياة، في عالمنا العربي، وفي العالم الخارجي، من جديد في الطموحات الإنسانية، إلى مواقع الطليعة في الفكر وفي القِيَم وفي السلوك اليومي، على كل جبهات النشاط الإنساني.

وهكذا، وبإصرار لا مثيل له، ولكن بهدوء عميق، وبصمتٍ مليء بالوعي، وبالقليل القليل من الضجيج، استمر "أبو علي" في مسيرته، ينتقل من موقع في النشاط، ومن مهمة، إلى موقعٍ آخر وإلى مهمة أخرى، بدون كلل، وبإبداعٍ متواصل. وهكذا، وبنفس النوع من الإصرار قرّر أن يبقى شاباً. وبقي شاباً حتى آخر لحظة من حياته، وهو على عتبة الثمانين.

بغياب سرحان سرحان تتوهّج في وجدان أصدقائه الكُثُر حرارة الاعتزاز به، حياً وميتاً، وتتعمّق الثقة بأنّ ما قدّمه في حياته الطويلة كن مثمراً، وبأنّ المستقبل سيظل يذكره. مثلما يذكر أمثاله، باستلهام لا يهدأ، من تلك التجربة الغنية، من المثل الرائع في السلوك ومن الارتباط حتى الصميم، بالجميل من القِيَم الإنسانية، وبالرائع من مُثُل الاشتراكية.

كم أحببناك يا "أبو علي" وأنت في مجد عطائك، وكم نشعر اليوم، بالحزن على فراقك.